

الصوت اللغوي والدرس اللساني الحديث

الأستاذ زاوي عبد الرحمن

جامعة المدية

ملخص البحث:

بدأت الدراسات الصوتية المعاصرة في العالم العربي منذ فترة طويلة، ولعلّ أول كاب في هذا مجال هو الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، إذ يعد الكتاب الأول المتأثر بالفكر اللغوي الحديث، وتمثل مباحثه اتجاهها تجديديا في البحث الصوتي المعاصر. ومن المتعارف عليه عند اللسانيين المعاصرين أنّ هناك ثلاثة أفرع لعلم الأصوات هي:

علم الأصوات النطقي الفسيولوجي.

وعلم الأصوات الفيزيائي الأوكوستيكي .

و علم الأصوات السمعي الإدراكي .

فالأول حضّي بقسط وافر من البحث وبقي الثاني والثالث لم يأخذا نصيبهما من البحث، لذا سنركز في بحثنا هذا على الفرع الأخير.

ولقد أكد الدرس اللساني الحديث مدى أهمية علم الأصوات لأي مستوى من مستويات اللغة، فالأصوات هي المظاهر الأولى للأحداث اللغوية، وهي كذلك بمثابة اللبنات الأساسية التي يتكون منها البناء الكبير.

The Sound of language and the modern linguistics

modern Sound studies started in the arabic world âges ago. And the first sound of language in this domain is the one for Ibrahim Anis. This writer is considered as the first one who was influenced by the modern thinking. His researches are considered as the new thinking in the world of modern Sound researches.

إن طبيعة اللغة وجوهرها لا يمكن أن يفهم بوضوح إلا من خلال الدور الذي تؤديه في حياة الفرد والجماعة اللغوية الواحدة وحياة الإنسان بعامته.

وقد عبر أحدهم عن هذه الحقيقة بقوله: "إذا أردنا أن ندرس الفكر والنتاج الفكري فالواجب أن ندرس اللغة، وإذا أردنا أن ندرس اللغة فعلينا أن ندرس عملها في المجتمع"¹.

ويرى اللغويون من أصحاب الفلسفة والمنطق أن الوظيفة الرئيسية للغة هي نقل الخبرة الإنسانية والتعبير عن الفكر واكتساب المعرفة، وعلى هذا فاللغة ضرورة حتمية لتقدم الثقافة والعلم، لأن الألفاظ "حصون الفكر" وبالتالي فلا وجود للفكر بدون اللغة، لأن الكلمة أداة للتفكير في المعنى الذي تعبر عنه.

يقول "لوك" اللغة تولد الفكر، وأن الناس ليطلبون في تكوين أفكارهم عون اللغة... فاللغة تعد أم التفكير، وما يسمى عمليات العقل ليس إلا من عمل اللغة... فالمرء لا يفكر دون عون اللغة².

فإن فقد التعبير ضاع الفكر، وهذا ما كان يعنيه "سقراط" بعبارة المشهورة "يا هذا كلمني حتى أراك" التي وجهها لى رجل كان صامتا ولا يشارك في الحوار، "سقراط" يشير بهذا أن الإنسان إن لم يفصح عن ذات نفسه بالكلام فإنه لا يرى، أي لا يعرف عنه شيء، فاللغة كما يقول المفكر الألماني "همبولت" Humboldt هي "عمل العقل و"هي الصوت المنطوق الذي نستطيع به أن نعبر عن الفكر".

وهي ليست مقصودة على وظيفة التوصيل كما في لغة الحيوان، ولكنها أداة للتفكير الحر والتعبير الذاتي.

فاللغة في نظر العقلين فكر أو تعبير عن فكر، وهذه نظرة قاصرة جدا لأنها لا يمكن أن تستوعب جميع أشكال الأحداث اللغوية أو أنواع السلوك الكلامي وحقا ما يقوله "يسبرس" O.Jespersen أنه ما دمنا ننظر إلى اللغة باعتبارها العقلي أي كوسيلة من وسائل الاتصال ونقل الأفكار، فسوف لن نقرب من الفهم التام لطبيعتها.

نظريات اكتساب اللغة.

يعرف ابن جني اللغة بقوله "أما حدها -أي اللغة- فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"³. هذا التعريف على إيجازه -يتضمن معظم الجوانب التي يتفق عليها المحدثون في تعريف اللغة، فهو يشير إلى الوظيفة "التعبيرية" للغة، ويفصح -أيضا- عن كون اللغة اجتماعية، أي أنها لا توجد إلا في أحضان جماعة لغوية معينة يتعاملون بها تعبيرا عن أغراضهم.

وأهم من كل ذلك يقرر أن اللغة "أصوات" وهذا ما يؤكد اللغويون المحدثون وعلى رأسهم العالم اللغوي السويسري "فرديناند دي سوسير" Ferdinand De Saussure (1857/1913) الذي يرى أن اللغة في جوهرها، نظام من الرموز الصوتية أو مجموعة من الصور اللفظية تحتزن في أذهان أفراد الجماعة اللغوية، وتستخدم للتفاهم بين أبناء مجتمع معين، ويتلقاها الفرد عن الجماعة التي يعيش معها عن طريق السماع.

وعبارة ابن جني -أيضا- تشير ضمنا إلى أن الرموز الصوتية لا معنى لها في ذاتها وقد حسم "علم اللغة الحديث" هذه القضية التي شغلت المفكرين دهرا طويلا، فهو يقرر أن اللغة عرفية، وأن العلاقة بين جزئي العلامة اللغوية (الدال والمدلول) علاقة اعتباطية، ذلك لأن الدال والمدلول -في الحقيقة- ليسا شيئا واحدا بل هما شيئان مختلفان تماما، فالدال أي الصوت إن هو إلا رمز أو علامة على الشيء يغني عن استحضاره عند التفاهم، فمعنى الشيء غير ذاته.

وفي العصر الحديث اهتم العلماء باللغة اهتماما كبيرا، وأجروا تجارب مكثفة للكشف عن طبيعتها مما أسفر عنه ظهور "علم اللغة الحديث" والذي بين من خلاله دي سوسير عن طبيعة اللغة عن طريق التفرقة بين ثلاثة مصطلحات أساسية هي:

الكلام - La parole. - اللسان La langue - اللغة Le langage

1- الكلام: La parole

هو الأحداث المنطوقة فعلا من متكلم فرد⁴، أي العبارات التي لها واقع مادي مباشر، ويمكن أن يدرك إدراكا حسيا، وعلى ذلك فالكلام نشاط فردي يقوم به شخص ما في حديثه مع الآخرين، ونظرا إلى أن الأفراد هم الذين يمارسون الكلام وليست الجماعة، فهو لذلك ليس "حقيقة اجتماعية" لأنه عمل الفرد يعمل فيه بالحذف والزيادة والتعديل، وذلك على العكس من الوقائع الاجتماعية التي يجب أن تكون "عامة" يمارسها المجتمع بشكل جبري.

أما اللغة: Le langage

فيعني بها اللغة بالمعنى المطلق، هي كلام ينقصه التكلم، إنها المجموعة الكلية للعادات اللغوية، التي تسمح للفرد بأن يفهم وأن يُفهم⁵.

وهي على هذا الأساس، ملك للفرد وللمجتمع أيضا، فهي فردية واجتماعية في آن واحد، ولذلك فهي أيضا ليست "واقعة اجتماعية" لأنها تتضمن العوامل الفردية المنسوبة إلى المتكلمين الأفراد⁶، وهي تقع على تخوم عدة ميادين فيزيائية وفسولوجية ونفسية.

وهي تتحقق في أشمال متعددة ومتنافرة، ولذلك لا يمكن أن تدرس دراسة علمية لما تفتقده من مبدأ التجانس والوحدة.

أما اللسان La langue

فهو اللغة المعينة الصالحة للدراسة العلمية كالعربية والإنجليزية وسواهما، وهو مجموعة من الصور اللفظية المخترنة في العقل الجماعي، وهذه الصور ذات قيم موحدة عند جميع الأفراد وهو نتاج اجتماعي لملكة اللغة، وهو خارج عن نطاق الفرد لأنه يرثه باعتباره تراثا جماعيا وليس له في هذا الميراث أي نوع من الاختيار.

فهو لا يملك التدخل في اختيار مفرداته أو تنظيم قواعده، واللسان لا يوجد إلا بنوع من الاتفاق الجماعي، ولذا فإن الإنسان لا يستحوذ على اللسان إلا بالدربة والمران.

واللسان متميز عن الكلام، فلو أن هناك فردا فقد القدرة على الكلام فإنه يظل يحتفظ باللسان، ذلك أن اللسان نظام أي مجموعة محددة من القواعد اللفظية التي تنظم المفردات والتراكيب وتمثلها كتب القواعد والقواميس.

أما الكلام فهو أحداث منطوقة حسب نظام اللغة المعينة، أي أن اللسان يمد الكلام بالقواعد التي يطبقها فعلا في وجوده المادي.

وخلاصة هذا كما يرى "دي سوسير" أن الكلام لا يمكن دراسته دراسة علمية لأنه فردي، وما لا يمكن التنبؤ به لا يمكن دراسته دراسة علمية، واللغة كذلك لا تدرس بشكل علمي لأنها لا تمثل واقعة اجتماعية خالصة حيث أنها تخص الفرد وتخص الجماعة، أما اللسان فهو وحده الذي يمكن دراسته دراسة علمية لأنه موضوع محدد يتصف بالتجانس ولذا يمكن ملاحظته وتصنيفه وله بذلك مكان بارز بين الحقائق الإنسانية⁷.

واللغة عنده نظام من العلامات التي تتكون من صورة صوتية ومن مفهوم مرتبط بها ارتباطا وثيقا، والعلامة أو الرمز علاقة ترابطية بين المفهوم والصورة الصوتية.

وهذه العلامات مزدوجة، أي أنها اتحاد لصورة صوتية هي "الدال" بتمثيل ذهني أو مفهوم هو "المدلول" وتحقق الدلالة من مجموع هذين العنصرين اللذين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، فهما كوجه الورقة وظهرها لا يمكن تمزيق الأول دون تمزيق الثاني.⁸

ويتصدى أ. يسبر سن O.Jespersen العالم الدنمركي لآراء "دي سوسير" ولا يقبل قوله أن الكلام من نتاج الأفراد، بينما اللسان من نتاج المجتمع.

ففي رأيه أن الجماعة ليست سوى مجموعة من الأفراد وعلى ذلك فالكلام واللسان هما جانبان لشيء واحد، وكلام الفرد ليس شيئا منفصلا عن لغة الجماعة، إنه مثل أو صورة لها، فالكلام وإن كان نشاطا فرديا إلا أنه يرتبط بعنصر اجتماعي، هو الإفهام، ومفردات "اللسان" المعني هي جميع ما ينطق به كل أفراد من ألفاظهما اختلفت درجة شيوعها والأمر كذلك بالنسبة للتراكيب ومخارج الحروف.

ويرى "يسبر سن" أن العلاقة بين اللسان والكلام، شبيهة بعلاقة النوع بالفرد، فكل "حروف" يختلف عن آخر وبالرغم من ذلك نستطيع أن نتصور معنى عاما مشتركا بين جميع "الخرف" نطلق عليه كلمة حروف، والخروف بالمعنى المطلق ليس له وجود في عالم الواقع وإنما هو أمر ذهني، وكذلك اللسان بالنسبة للكلام فالموجود فعلا هو النشاط الإنساني الذي يقوم به فرد أو أفراد.

وهو يتساءل مستنكرا إذا كان "اللسان" عند "دي سوسير" مجموعة من الصور الذهنية للكلمات والتراكيب اللغوية الموجودة لدى جماعة لغوية خاصة، ومستقر هذه الصور أذهان الأفراد، فماذا تكون الصورة الذهنية المستقرة في ذهن فرد خاص؟ هل هي كلام أم لسان؟.

إنها بمفهوم "دي سوسير" ليست كلاما، لأن الكلام عنده نشاط فعلي، والصور الذهنية لدى فرد معين ليست كذلك، وهي أيضا ليست "لسانا" لأنها أمر فردي بينما "اللسان" أمر جماعي، فماذا تكون -إذن- إن لم يكن كلاما ولا لسانا؟ ويجعل "دي سوسير" القاموس والكتب الخاصة بالقواعد تمثيلا "لللسان" الذي هو أمر جماعي لا تمثيلا للكلام الذي هو أمر فردي، وهنا يسأل "يسبر سن" ما قوله في وجود قاموس خاص "بهميوس" وآخر خاص "بشكسبير" مثلا كما توجد كتب خاصة للقواعد التي جرى عليها كل من هذين الشاعرين، هل يكون القاموس مجالا لتسجيل النشاط اللغوي الفردي على غير ما قرره "دي سوسير"؟⁹.

لذلك نجد أن يسبر سن يعتمد تقسيما آخر يقدم فيه ثلاثة مصطلحات هي:

1- الحدث اللغوي: وهو نطق فرد معين بعبارة معينة مرة واحدة، ولو أن الفرد نفسه كرر العبارة نفسها، فإن هذا يشكل حدثا لغويا جديدا لأنه لا يمكن أن تتشابه المواقف أو الدوافع للأحداث اللغوية في جميع تفصيلاتها.

2- لغة الفرد: وهي القيم اللغوية الموجودة لدى فرد من الأفراد.

3- لغة الجماعة: وهي مجموعة القيم اللغوية لدى أفراد الجماعة اللغوية الواحدة.

كما أن يسبرسن يرى أن الواقع اللغوي يكون أحداثا لغوية "أما العلاقات والقواعد والأمور التجريدية فهي لغة" وقد تكون اللغة "فردية" حين تكون هذه القواعد والعلاقات والتجريدات خاصة بفرد من الأفراد، وقد تكون اللغة "جماعية" حين تكون هذه الأمور عامة تشمل الجماعة كلها¹⁰.

كما يرفض فيرث Firth أيضا نظرية "دي سوسير" في الكلام واللسان، فهو لا يؤمن بشائية الفرد والمجتمع التي ابتدعها "دور كايم" عالم الاجتماع الفرنسي وتابعه فيها "دي سوسير"، فالفرد وإن كان له شخصيته المستقلة المتميزة عن غيرها من الشخصيات، إلا أنها تشترك معها في كثير من الأمور، واللغة أيضا تدرس باعتبارها جزءا من عملية اجتماعية، وأن ما نسميه النظم الصوتية أو الأجناس النحوية أو الصرفية أو الدلالية ليست إلا هياكل مبتكرة ومنتظمة تستهدف تحليل الأحداث اللغوية.

فهذه النظم ليس لها وجود خارجي، وإنما هي مجرد اصطلاحات ذات مفهومات معينة نستعين بها على فهم اللغة، فليس في اللغة فعل أو فاعل أو مفعول أو مصدر، ولكن اللغة أقوال تنطق لا غير.¹¹

أولا: النظريات السلوكية:

في النصف الأول من القرن العشرين ساد في الدراسات اللغوية "المنهج الوصفي التشكيلي" ورائده اللغوي الأمريكي ليونارد بلوم فيلد L.Blomfield 1887-1949 صاحب كتاب "اللغة Langages" الذي وصفه الباحثون بالقيم.

وقد تأثر بلوم فيلد بالمذهب السلوكي في علم النفس الذي كان سائدا في أوروبا وأمريكا، والسلوكيون يوجهون كل عنايتهم إلى دراسة ظاهرة السلوك فقط على اعتبار أنه مكون من عادات مختلفة تتكون عن طريق "المثير" و"الاستجابة" وهذا يعني أن السلوك الإنساني يمكن التنبؤ به عن طريق فهم الظواهر الفسيولوجية، وغيرها من الظواهر المادية في سلوك الأفراد.

يعرف ل. بلوم فيلد اللغة بأنها "مجرد سلوك بشري شبيه بما عده من العادات السلوكية الأخرى" ولذلك فهو يطلق على اللغة اسم "السلوك النطقي" أو "السلوك اللغوي" وبناء على ذلك فغن دراسة اللغة ينبغي أن تهتم بوصف الأشكال اللغوية الظاهرة المتمثلة في الأصوات والتراكيب الصرفية والنحوية، فهذه هي التي يمكن ملاحظتها وتسجيلها مثلها في ذلك مثل أي عادة سلوكية أخرى، أما المعنى فقد أبعدته كلية عن حقل الدراسة اللغوية، على أساس أنه أمر نفسي، فهو ليس مظهرا خارجيا يمكن النظر فيه بالمنهج العلمي الموضوعي المستخدم، في العلوم التجريبية.

وهذه نقطة ضعف بارزة عند بلوم فيلد ومدرسته، فاللغة رموز تتضمن معاني أو دلالات، وعلى ذلك فالدراسة الوصفية التشكيلية هي دراسة علمية ليس فيها أي محاولة من أجل الفهم أو التغيير، إنها تصف الملامح السطحية، من غير أن يمتلك محتواها الفكري وكأن اللغة مجرد علامات مفرغة من الدلالات، لذا فقد انتقد بعضهم هذا المنهج باعتبار أن الكلام عن التحليل اللغوي من غير إشارة إلى المعنى هو كمن يصف طريقة صنع السفن من غير إشارة إلى البحر.^{1 2}

إن التفسير السلوكي للظاهرة اللغوية، ينبنى على المعطيات العلمية السلوكية "Béhaviourisme" وهي نظرية من نظريات علم النفس، شاعت وتوغلت في كل الميادين العلمية، حتى أوشكت أن تكون المنهج الفريد، المعول عليه في تقصي مظاهر النشاط الإنساني فلا غرر إذن إن ألفيناها تقتحم الميدان اللساني فتضفي عليه طابعها الخاص.

ولأن العملية التواصلية من وجهة نظر النظرية السلوكية، لا تعدو أن تكون آلية تقوم على مفهوم المثير والاستجابة، تطورت النظرية السلوكية وأخذت مسارها الطبيعي في الوصف اللساني على يد اللساني الأمريكي "بلوم فيلد" الذي كان جادا في تطبيقها.

حيث نجد أن هذه النظرية تركز في جوهرها على أسس علمية، كعدم الاهتمام بالجوانب الذهنية مثل العقل والتصور والفكرة ودحض كل تحليل نفسي يعول على الاستبطان، وإبراز كل ما يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة بالاعتماد على السلوك الظاهر دون سواه، وحين تطبيق هذا المنهج على الظاهرة اللغوية ينصب التحليل على الأشكال اللغوية الظاهرة، والمواقف المباشرة التي أدت إلى إنتاجها في الواقع اللغوي، لذلك أطلق بعضهم على اللغة مصطلح السلوك النطقي أو السلوك اللغوي.

كما تعتمد هذه النظرية على تقليص دور الدوافع والقدرات الفطرية في الظواهر السلوكية، وإعطاء أهمية قصوى لعملية التعلم في اكتساب النماذج السلوكية، كما أن التواصل اللغوي في نظر السلوكيين لا يعدوا أن يكون نوعا من الاستجابات réponses لمثيرات ما stimulus تقدمها البيئة أو المحيط environnement.

إن ما انتهى إليه "بلوم فيلد" من إسقاطات سلوكية على الظاهرة اللغوية، إنما بناه على تلك الأسس المشار إليها -سالفا- فكانت حصيلة ذلك كله أن أقر مبدئيا أن الجوانب الدلالية للعناصر اللسانية لا تعدو أن تكون الموقف الذي يقوم فيه المتكلم المستمع المثالي للغته بالإنتاج الفعلي للكلام، ورد الفعل أو الاستجابة التي يتطلبها ذلك من المستمع.^{1 3}

فالمتكلم حين أدائه الفعلي للكلام يكون قد قام باستجابات نطقية لمثيرات ما تخضع خضوعا مطلقا لحافز البيئة، دون أن ترتبط هذه الاستجابات بأدنى قدر من التفكير.

"لأن الاستجابة الكلامية مرتبطة بصورة مباشرة بالحافز ولا تتطلب تدخل الأفكار، وذلك لأن اللغة في نظر السلوكيين لا تعدوا أن تكون عادات صوتية يكتفها حافز البيئة"^{1 4}.

ترتكز المعطيات العلمية للتفسير السلوكي على التجارب المخبرية التي أجريت على الحيوانات، مما جعلت السلوكيين يعممونها على المظاهر السلوكية لدى الإنسان، فتبدوا اللغة وفق هذا من الاستجابات المتتالية.¹⁵

كما تفترض النظرية السلوكية عامة أنه ينبغي أن نولي الاهتمام بالسلوكيات القابلة للملاحظة والقياس، ولا يركزون اهتمامهم على الأبنية العقلية أو العمليات الداخلية التي تولد الأبنية اللغوية، والمشكلة الأساسية في هذا المنظور أنه نظرا لأن الأنشطة العقلية لا يمكن أن ترى فإنها لا يمكن أن تعرف أو تقاس.

فالسلكيون لا ينكرون وجود هذه العمليات العقلية، ولكنهم يرون أن السلوكيات القابلة للملاحظة مرتبطة بالعمليات الداخلية أو الفسيولوجية ويرون أنه لا يمكنهم دراسة ما لا يمكن أن نلاحظه، ومن ثم فإن السلوكيين يبحثون عن السلوكيات الظاهرة التي تحدث مع الأداء اللغوي.

ويرى السلوكيون أن اللغة في مراحلها الأولى هي نموذج بسيط من السلوك إنها عادة، وأن اللغة هي شيء يفعلها الطفل وليس شيء يملكه كما يرون أن اللغة مستعملة وفقا لنفس المبادئ المستخدمة في تدريب الحيوانات، فسلوكيات الحيوانات المتعلمة هذه هي نفسها السلوك اللغوي المتعلم بالتقليد والتعزيز.

إن أبرز أوجه الخلاف مع السلوكية أن الطفل يكون سلبيا خلال عملية تعلم اللغة، فالطفل يبدأ الحياة بجمعة لغوية خاوية، ثم يصبح الطفل مستخدما للغة حينما تمتلئ الجعبة بالخبرات التي توفرها النماذج اللغوية في بيئته، وهذا لا يعني القول بأن الطفل غير فعال تماما، فهو فعال بمعنى أنه تقليد الأشكال اللغوية ولكنه لا يبادر بهذه السلوكيات من جانبه، وشكل لغته الناشئة يتحدد ليس بالاكشاف الذاتي أو التجارب الإبداعية ولكن بواسطة التعزيز الانتقائي الذي يتلقاه من المحيطين به.

إن هذا يقود إلى الافتراض الأساسي الكامن خلف تصور السلوكيين للنمو اللغوي، بالرغم من أن السلوكيين لديهم آراء مختلفة حول كيفية حدوث عملية التعلم بالضبط، إلا أنهم يتفقون جميعا حول البيئة أنها هي العامل الأكثر أهمية في عملية الاكتساب، وبينما يؤكد الفطريون على التشابهات التي تحدث في النمو اللغوي لدى الأطفال، فإن السلوكيين يؤكدون على الاختلافات التي تحدث بواسطة البيئات الواسعة الاختلاف، للأطفال أثناء فترة اكتساب اللغة، فالسلوكية تركز على القوى الخارجية التي تشكل سلوكيات الطفل اللفظية في صورة لغة، فهم يرون الطفل باعتباره مستجيب لهذه القوى.¹⁶

إن هذا يقودنا إلى الافتراض الأساسي الكامن خلف تصور السلوكيين للنمو اللغوي، بالرغم من أن آراءهم تختلف حول كيفية حدوث عملية التعلم إلا أنهم يتفقون جميعا حول الأكثر أهمية في عملية الاكتساب، وبينما يؤكد أصحاب النظرية الفطرية على التشابهات التي تحدث في النمو اللغوي لدى الأطفال، فإن السلوكيون يؤكدون على الاختلافات التي تحدث بواسطة البيئات الواسعة الاختلاف،

للأطفال أثناء فترة اكتساب اللغة، فالسلوكية تركز على القوى الخارجية التي تشكل سلوكيات الطفل اللفظية في صورة لغة فهم يرون الطفل باعتباره مستجيب القوى.

- الكلام واللغة كسلوكيات إجرائية:

ومن أبرز المنظرين المرتبطين بالتفسير السلوكي لنمو الكلام واللغة هو "سكنر" وليس بمستغرب أن يرى "سكنر" الكلام باعتباره سلوكا متعلما لأنه ينظر إلى كل السلوكيات باعتبارها متعلمة وفق مبادئ التعلم أو الاشتراط الإجرائي.

ولكي نفهم تفسير "سكنر" لنمو اللغو والكلام علينا أن نفهم أولا المبادئ الأساسية للاشتراط الإجرائي، ويمكن أن نتناول ذلك بتوضيح مختصر.

الإجراء هو أي سلوك يمكن أن يتأثر حدوثه بالاستجابات التي تعقبه أو بعبارة بسيطة السلوك الإجرائي هو رد فعل الكائن تجاه البيئة، فإذا ما زاد حدوث تكرار سلوك معين كنتيجة لاستجابة تعقبه، فإنه يحدث التعزيز، وإذا ما نقص التكرار، فإن السلوك المعين تتم معاقبته.

وفي الاشتراط الإجرائي، فإن الأحداث التي تعقب السلوكيات المستهدفة هي أشياء ذات أهمية للتعلم، بيد أن الأحداث التي تسبق السلوكيات أو المستهدفة هي أيضا من الأهمية بمكان، لأنها تتحكم في حدوث السلوكيات المطلوبة من عدمه، ولنفترض أن أحد الوالدين قام باشتراط الطفل تعليمه أن يقول "شكرا" حينما يتلقى هديته "تعزيز" في كل مرة يقول فيها ذلك، فإذا ما زادت كلمة شكرا كنتيجة للعديّة، فإننا نستطيع أن نقرر أن التعزيز والتعلم قد حدثا، أثناء فترة التعلم قد يعطي الوالد -شعوريا أو لا شعوريا- نظرة معينة للطفل أثناء تلقيه الهدية، هنا النظرة تذكر الطفل أنه يجب أن يقول "شكرا" وتسمى هذه النظرة "المثير المميز".¹⁷

كما أن للتقليد دور هام في عملية اكتساب اللغة، فالوالدين والأفراد المحيطين بالطفل يستخدمون اللغة ولديهم الخبرة في تنمية الأشياء للطفل، هذا ما يمثل نماذج (modèle) للاستخدام اللغوي الكفء. وهكذا يحاكي الطفل كلام الراشدين، ويرى الباحثون أن الأصوات المقلدة تتكرر مع الطفل نتيجة لأنها تسبب خبرات سارة لديه بالإضافة إلى أن هذا التقليد يعزز من المحيطين بالطفل¹⁸.

وهنا نشير إلى رأي "ميرفي" Murphy فهو يرى ضرورة التفرقة بين عمليتين مختلفتين تقومان وراء اكتساب الطفل اللغة، الأولى هي عملية فهم لغة الغير من الراشدين والثانية هي استخدام هذه اللغة، ويتفق معظم الباحثين على أن العملية الأولى تسبق الثانية، فالطفل يفهم بعض العبارات ويستجيب لها استجابات ملائمة قبل أن يستطيع استخدام اللغة بمعناها الدقيق.¹⁹

ويعترف التجريبيون الذين يدعون أنهم قد علموا الحيوان شيئا من اللغة الإنسانية أن تلك الحيوانات التي دربوها لم تستطع أن تكتسب اللغة بالطريقة التي يكتسبها الأطفال وقد ظلت "القردة" مثلا المدربة عدة سنوات تتعلم النطق بثلاث كلمات فقط هي (بابا) (ماما) و(كب) أي فنجان، والواقع أنها قد فعلت ذلك بصعوبة كبيرة وبعد تدريب شاق اشتمل على تحريك شفتي القردة باليد بشكل مباشر.²⁰

إذ ثمة اعتقاداً سائداً بأننا نولد مزودين بأعضاء صوتية وجهاز عصبي يمكننا من النطق، ولا يلبث الطفل طويلاً حتى يكتشف الأصوات ويتلفظ بها، بغض النظر عن الثقافة التي ولد فيها، وبالمثل فإن السرعة التي تتحول بها هذه التلفظات إلى نطق له معنى (لدى كل من الطفل والمحيطين به) وإلى أصوات قابلة للإعادة خلال السنوات القليلة الأولى من حياة الطفل تعد شهادة مقنعة لما في وسع الطفل من قدرة على اكتساب اللغة.^{2 1}

ليس هناك شك أن التعزيز والتقليد لهما دور هام في النمو اللغوي، إلا أنه بالرغم من ذلك فإنه من الصعوبة بمكان أن ينظر إليهما باعتبارهما التغير الوحيد لنمو الطفل اللغوي.

فالنظرية السلوكية هي نظرية مبسطة وعامة إلى حد ما، فمثلاً من الصعوبة أن نعلل ونفسر التماثل والتشابه في اكتساب اللغة لدى الكائنات البشرية، فكل الأطفال يكتسبون لغة، ويكتسبون بطرق متشابهة إلى حد كبير، فلو كان اكتساب اللغة هو بمثابة حالة بسيطة من تشكيل البيئة للغة الطفل فإنه سيكون هناك اختلاف وتباين واضح في الصور والأشكال والعمليات اللغوية.

إن نظرية التعلم تفشل في توضيح وشرح استخدام الأطفال للكلمات والجمل الجديدة، فالالتزام بنموذج نظرية التعلم باعتباره التغير الوحيد لاكتساب اللغة هو بمثابة النظرة القاصرة للموضوع، فعلى سبيل المثال فإن الأطفال الصغار يفهمون اللغة أكثر مما يستخدمونها فنظرية التعلم ليس لديها تفسير لفهم الطفل للكلمات والجمل المتنوعة كما أن التعزيز والتقليد لا يضعان في الحسبان مسألة السرعة الفائقة التي يتعلم بها الأطفال اللغة بمجرد أن يبدأون في التحدث. علاوة على هذا فإن الراشدين يميلون إلى تعزيز محتوى الكلام، أكثر من تعزيزهم للتركيب النحوي.

وهناك بحث قام به كل من براون "Brown" وجازدن "gazden" وبيولوجي "bullugi"، قارنوا فيه بين صحة الكلام عند الأطفال حين تعقبه علامات الاستحسان من الوالدين بمحدث الأطفال الذي لا تعقبه علامات الاستحسان فأوضحت النتائج أن الأسس التي كان يتم بناء عليها الاستحسان أو عدم الاستحسان لكلام الأطفال أسس غير لغوية على الإطلاق، ولكنها كانت تقوم على مدى الاتساق بين الكلام والواقع، أي مدى واقعية الجملة.^{2 2}

ولهذا نجد جملاً خاطئة نحويًا مثل "أنا لا مثل أختي" والتي يقصد بها "أني لست مثل أختي" قد يستقبلها الوالدين بالاستحسان والموافقة، بينما نجد جملة سليمة البناء مثل "إنني نائم" قد تواجه بعدم الموافقة "لا أنت لم تنم".

وكذلك من أبرز جوانب القصور في هذه النظرية السلوكية هو الافتراض أن الطفل يلعب دوراً سلبياً في اكتساب اللغة، فالأطفال حتى في المراحل المبكرة من تعلم اللغة يقومون بالتجريب بشكل فعال من خلال إحداث الأصوات بصرف النظر عن رد فعل الوالدين، فهم يشيرون إلى الموضوعات والأشياء التي يسميها الوالدين لهم، ويبتكرون كلمتان أو ثلاث لم يتحدث بها أبداً الوالدين إليهم.^{2 3}

وفيما يتعلق بالتقليد فإن التقليد ليس هو السبيل الوحيد الذي يتعلم بواسطته الأطفال اللغة فلو كان ذلك صحيحا فإن كلام الأطفال ينبغي أن يكون صحيحا نحويا بشكل دائم، لأن الراشدين يستخدمون النحو غالبا بشكل صحيح، بيد أننا نجد أن الطفل في الواقع قد يكون كلامه غير مناسب من حيث القواعد النحوية.

كما قدمت جايمس "james" تلخيصا لبعض المشاكل والانتقادات الموجهة لهذا النموذج السلوكي، ففيما يتعلق بدور التقليد فإنه مثار تساؤل، فالأطفال ينتجون جملا لم يسمعوها أبدا من قبل، وهذا يعني أنهم ينتجون جملا أكثر ابتكارية وأكثر اختلافا عما سمعوه فالطفل قد يقول أشياء مثل "لا بابا جاء" ويعني بها أن الأب لم يجيء، أو غيرها من الجمل المختلة نحويا وصرفيا...

كما أن التقليد يقل بشكل كبير بعد العام الثاني، ولكن نجد أنه ما زال هناك كثيرا من اللغة يجب اكتسابها بعد عمر الثانية، ولو كان التقليد هاما كما يعتقد السلوكيون فإننا نتوقع أن نرى تقليدا أكثر اتساقا من النماذج التي نراها.

وهكذا يمكننا القول أنه بالرغم من بعض الفائدة التي تكمن في نظريتي الاشتراط والتقليد في شرح كيفية اكتساب اللغة، إلا أنه بالإضافة إلى ما سبق فإن هذه النظريات تغفل بعض العوامل البيولوجية أو النضجية المهيأة لاكتساب اللغة، فعلى سبيل المثال، نجد أن القراءة للغة المكتوبة تبدأ في عمر السادسة تقريبا وكل الأطفال لا يستطيعون القراءة في نفس الوقت وبعض الأطفال يبدون استعدادا للقراءة مبكرا عن البعض الآخر، إن التهيؤ يدل على أن النمو الملائم يجب أن يحدث أولا قبل أن يستطيع الأطفال التعلم، وهذا التهيؤ للقراءة يجب أن يكون محددًا بيولوجيًا، فإذا لم يكن ذلك صحيحًا، فإنه ينبغي على الوالدين نظريًا على الأقل أن يكونوا قادرين على تعليم طفلهم الصغير القراءة بمجرد أن يولد.

ومن نقد النظرية السلوكية نجد تشو مسكي، فهو يدحض الآراء التي عرضها سكرن في كتابه السلوك اللغوي verbal bahaviar وقد رأينا أن السلوكيين ومنهم سكرن يؤمنون بأن اللغة لا تعدوا أن تكون عادة اجتماعية سلوكية مثلها في ذلك مثل سائر العادات السلوكية الأخرى، وأن اكتساب اللغة يتم عن طريق المحاولة والخطأ.

أما تشو مسكي فيرى أنه لا توجد أي علاقة بين سلوك حيوانات التجارب وبين اللغة البشرية، لأن اللغة خاصية من خصائص الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره وأن أنظمة الاتصال عند الحيوان والتي تسمى تجاوزا لغات تختلف بصورة جذرية عن اللغات الإنسانية فلهذه اللغات طاقة توليدية لا متناهية ولا يمكن التنبؤ بعبارات اللغة التي سوف تقال استنادا إلى المثيرات الخارجية ويرى أن اللغة ظاهرة معقدة غاية التعقيد وأن الطفل لا يولد وذهنه صفحة بيضاء كما يزعم السلوكيون، بل أنه يولد "مزودًا" بمعرفة تامة بالنحو الكلي، أي أنه يولد ولديه قدرته أو استعداد لغوي فطري Compétence وهذا الاستعداد الفطري هو الذي يفسر تلك السرعة المذهلة والسهولة الفائقة التي يكتسب بها الطفل لغة الأم.

وقدرة الطفل على تعلم الكلام ليس له علاقة بالذكاء أو الحافز، فجميع الأطفال سواء أكانوا أذكاء أم أغنياء يتعلمون الكلام باللغة الأم، ولو فرض أن الطفل لم يتعلم هذه اللغة الأولى قبل البلوغ فمن الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يتعلمها بعد ذلك، والتعليم المدرسي لا يعلم اللغة، فالمدرسة تعلم الطفل القراءة والكتابة ولا تعلمه التكلم باللغة.^{2 4}

وقد رأى تشو مسكي أن هناك عموميات لغوية، أي قواعد وأشكال عامة تنطبق على جميع اللغات الإنسانية وهذا هو الذي يتيح للطفل أن يكتسب أي لغة يوجد في محيطها وقد أبرز خاصية هامة تميز لغة الإنسان عن أنظمة الاتصال الحيواني تلك هي القدرة الإبداعية للغة الإنسانية، فالإنسان خلاق في لغته وفي وسعه أن يخلق بعدد محدود من الأصوات phonèmes ما لانهاية له من الجمل، والطفل عندما يمتلك خاصية اللغة تتكون عنده القدرة على الخلق والابتكار أي خلق وتوليد الجمل.

إن مثل هذه الانتقادات تدل بوضوح على أن التعلم ليس ميكانيزما مفردا يتم بواسطته اكتساب اللغة، ولهذا يمكننا أن نتناول نماذج ونظريات أخرى من نظريات اكتساب اللغة. ثم ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية حركة تزعمها عدد من علماء كان أهمهم وابعدهم أثرا "سابير" Sapir وبلوم فيلد، الذين يعتبران أبا المدرسة البنوية الحديثة... وقد امتد أثر هؤلاء على الدراسات اللغوية النظرية في أواخر الخمسينات من القرن الحالي، وظل أثرهم التطبيقي واضحا حتى أوائل السبعينات بل حتى الوقت الحاضر في كثير من البلدان، ذلك لأن أعمال هؤلاء العلماء اعتبرت ثورة فعلية على القواعد التقليدية، فما هي أسس هذه المدرسة وما هو منهجها وما هي نتائج مجهوداتها؟.

لقد اتخذت هذه المدرسة من المدرسة السلوكية في علم النفس حجر الأساس الذي تركز عليه ولذلك فقد كان اهتمامها مقصورا على السلوك اللغوي الظاهر الذي يمكن ملاحظته، دون التطرق إلى ما يجري داخل الدماغ، ولطلك ركزا دراستهم على لغة الحديث الشفوية بالدرجة الأولى، واعتبروا هذه المظهر من المظاهر اللغوية الأولى والأساسية والأهم ولهذا فقد ظهر في دراستهم الاهتمام الواضح بالجانب اللفظي verbal للغة والعناية الفائقة بانعكاس ذلك على المعاني.

إلا أنهم في مقابل ذلك أهملوا دراسة المعنى إهمالا كبيرا، وتركوه لعلماء النفس والفلاسفة ليعالجوه بطرائقهم الخاصة، على أساس أنه شيء غير ظاهرة وغير محسوس، ولهذا فهو ليس من اختصاص اللغويين.

وقد كان لتأثر أصحاب هذه المدرسة بالحركة العلمية التي سادت القرن الماضي، أثره الكبير على أسلوب أو منهج عملهم بحيث كانوا يجمعون المادة اللغوية من أفواه الناس ويسجلونها ثم يبدؤون بتقسيمها إلى جمل، فأشبهه جمل، فكلمات فأجزاء الكلمات، إلى أن يصلوا إلى الأصوات أو اللبئات الأولى، التي تتألف منها اللغة جميعا ثم يستخدمون الأسلوب العلمي الدقيق في اكتشاف الطرائق التي تتجمع بها الأصوات لتؤلف الكلمات والكلمات لتؤلف الجمل، أي لتؤلف النماذج أو الأنماط التي تنتج عن كل عملية من تلك العمليات.

لقد كان اهتمام "دي سوسير" الرأي الأول لهذه المدرسة منصبا على وصف اللغة، أي لغة، من داخلها وبالاعتماد على المعايير اللغوية دون سواها سعيا وراء التوصل إلى وصف دقيق علمي شامل لتركيب أو بنية اللغة الأساسية، وما يتفرع عنها من أبنية فرعية، بحيث يأتي الوصف شاملا وعلميا ودقيقا للغاية، ولذلك فقد كانت المعايير المستخدمة واضحة جدا ومنهجية ومطبقة بحرفيتها على جميع الحالات، وهذه بلا شك واحدة من أكبر حسنات منهج هذه المدرسة لأنها تأتي دائما بالنتائج الموثوقة المبنية على أساس ثابت.²⁵

إلا أن أبرز جوانب القصور في هذه النظرية هو اهتمامها بالشكل فقط فهي لم تحاول النفاذ إلى جوهر اللغة وأهم مظهر من مظاهرها وربما كان ذلك هو عبء هذه النظرية الرئيسي فما قدمته هذه النظرية لا يتعدى أن يكون تأخيرا للجمل الرئيسية التي تتكون منها اللغة وقد ساعدتهم النظرية السلوكية في علم النفس على افتراض أن وضع الأطر أو الأنماط اللغوية، سواء على مستوى الكلمة أو على مستوى الجملة، فيه الكفاية لعطاء الصورة الكاملة عن اللغة، ذلك أنهم وخصوصا بعد أن أتى "سكنر" بنظريته القائلة: "إن اكتساب اللغة شبيه باكتساب العادات الأخرى عن طريق 'المثير والاستجابة والتعزيز' ارتأوا أن تلك الأطر أو الأنماط أو القوالب التي قسموا اللغة إليها ما هي إلا أجزاء من العادات أو السلوك اللغوي يكتسبها الطفل واحدة بعد الأخرى بالاستماع والمحاكاة والتعزيز والتكرار إلى أن يتقنها.

وبما أنهم كانوا مهتمين بوجه خاص بتعليم اللغات الأجنبية فقد رأوا أن هذا هو الأساس السليم لتبسيط اللغة على المتكلم -بتقسيمها إلى تلك الأطر أو الأنماط- وبنوا عليها طريقتهم المعروفة باسم الطريقة السمعية الشفوية التي سادت معظم أنحاء العالم فترة من الزمن.

ولكننا نعرف الآن أن معظم علماء النفس المحدثين وكذلك علماء اللغة والمختصين في علم اللغة النفسي، لا يعتقدون أن التغير السلوكي لاكتساب العادات بوجه عام ينطبق على اكتساب اللغة، ولهذا يتضح لنا بجلاء مدى الخطأ الذي ارتكبه أصحاب هذه المدرسة في توجيههم النظري لتحليل اللغة وفرضيتهم المتعلقة باكتساب اللغة التي كان لها أكبر الأثر على توجيههم اللغوي.

لقد تعاملوا مع اللغة كما يتعاملون مع المواد الكيماوية التي يمكن تحليلها في المختبر بطريقة علمية موضوعية لا علاقة لها بالفكر أو المعنى، أو كما يتعامل العلماء مع الظواهر الطبيعية أو النظريات الرياضية وغيرها، وأهملوا إهمالا تاما علاقة اللغة بالعقل، كما أهملوا علاقتها القوية جدا بالمجتمع فأنت نظريتهم قاصرة إلى حد كبير.²⁶

النظرية الفطرية:

في عام 1957 ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية كتيب صغير الحجم عظيم الأثر بقلم عالم اللغة من أتباع النظرية البنيوية وهو "نوم تشومسكي" N.chomsky حيث أتى بنظرية جديدة تختلف عن سابقتها، اختلافا كاملا، واستطاعت أن تقوض النظرية البنيوية من أساسها.

لقد أخذت هذه النظرية الجديدة على سابقتها أنها اعتمدت على عينة، من الكلام الفعلي، ووضعتها في أطر موحدة، وكأن تلك الأطر هي الوحيدة التي تمثل أبنية اللغة جميعها، وبذلك سدت الباب على تلك الأبنية التي يمكن أن تتمخض عنها قواعد اللغة، بل التي تصدر عن الناس بالفعل سواء في لغة الحديث أو لغة الكتابة، كما أنها أخذت على المدرسة اللغوية السابقة أنها لم تتوصل إلى القواعد الفعلية التي تعمل كالمولد الآلي لتوليد جميع الجمل الصحيحة الممكنة في اللغة، سواء أصدرت عن أحد منذ بدء الخليقة حتى الآن، أم لم تصدر، أما أنها تصدر عن بعض الناس فيما يأتي من الزمن.

كما أخذت هذه النظرية على سابقتها سطحيته في الوصف اللغوي، واقتناعها بالشكل الخارجي للغة دون الالتفات إلى المضمون، أو المعنى الذي يكمن في أعماق اللغة، ويكون المرحلة العميقة الأساسية من مراحلها، ثم أن أصحاب هذه النظرية الجديدة لم يكونوا يؤمنون بالمذهب السلوكي، في علم النفس، واعتبروه سطحيًا لا ينفذ إلى أعماق الإنسان الذي تصدر عنه اللغة التي هي أعقد ما يصدر عنه على الإطلاق.²⁷

وقد افترض أصحاب هذه النظرية أن الطفل يولد مطبوعاً على قدرة خاصة تختلف عن جميع المخلوقات الأخرى، لاكتساب أي لغة أو لغات يتعامل معها في مجتمعه بشكل طبيعي، وخالفوا كل من سبقهم ممن قالوا أن اكتساب اللغة يتم عن طريق الاستماع والمحاكاة والتعزيز والتكرار، لأن هذا القول يعني أن يلتزم الطفل بما يسمعه فقط ويختزنه في الذاكرة.

ثم يسترجعه عندما يحتاج إلى شيء منه في مناسبة ما، وهذا في رأي أصحاب هذه النظرية خطأ كبير لسببين: السبب الأول أن هذا لو كان صحيحاً لتطلب وقتاً طويلاً جداً، بينما نجد أن الطفل يتقن لغة قومه في زمن قياسي لا يتعدى السنوات الثلاث أو الأربع الأولى، عن عمره، على أكثر تقدير وفي وقت يكون فيه عقله وذكاؤه قاصرين جداً، أما السبب الثاني فهو أن الواقع يدحض هذه الفرضية ذلك لأن الطفل ما إن يبلغ الخامسة من عمره وربما قبل ذلك بعام أو أكثر، حتى نجده قادراً على خلق الجمل التي يحتاج إليها في المناسبات المختلفة وفي كثير من الأحيان لا تكون هذه الجملة شبيهة بتلك التي يستخدمها الكبار، والتي يسمعها الطفل منهم، ولهذا فقد افترض أصحاب هذه النظرية أن هناك قدرة تولد مع الطفل تتكون مما يسمى بالقواعد الكلية (لجميع اللغات) *grammaire universelle* ولذا فقد وجد كل من "تشو مسكي" و"لين برج" *lanberg* أن نموذج التعلم السابق شرحه بسيط جداً ويتعذر الدفاع عنه وفي إشارة إلى أهمية الجوانب البيولوجية يرى لين برج أن بزوغ الكلام يكون تحت ضبط نضوحي صارم، وهكذا نجد أن بعض علماء اللغة يرون أن اللغة يتم تعلمها جزئياً من خلال خبرات الطفل وأن الجانب الأكبر منها يكون بسبب قدرات لغوية فطرية *capacité linguistique*.

فيرى لين برج أن هناك محدد بيولوجي فطري للسلوك اللغوي ويرى أن الكائنات تولد بقدرة لغوية ولديها استعداد فطري على إنتاج اللغة، وترى هذه النظرية أن اللغة ليست مكتسبة كلها، ولكن بعض منها غير ولاادي فهناك عناصر معينة من اللغة شائعة فيما يبدو، ويرى "لينبرج" أن قدرة الأطفال على

تعلم اللغة هي نتيجة للنضج، ويتحدث عن الفترة الحرجة لاكتساب اللغة فهو يرى أنه عند الميلاد وفي الأشهر الأولى المبكرة فإن النضج يحدد قدرة الطفل على أن يتكلم وعلى العكس فعند حوالي 18 شهرا إلى سن سنتين فإن الأطفال ينمون القدرة على الكلام واستخدام اللغة، فقدراتهم العصبية نضجت لدرجة أن اكتساب اللغة يصبح ممكنا.

وعموما فإن المنهج البيولوجي يرى أن هناك تفاعلا بين الاستعداد المبدئي أو الفطري السابق للغة وبين البيئة، وهذا المنهج يفترض أن اكتساب اللغة هو اكتساب سلسلة من القواعد التي تسمح للأطفال أن ينتجوا الجمل^{8 2} وإلى جانب ما سبق يناقش "لينبرج" عدة أمور شائعة في نمو اللغة، تؤكد مسألة النضج الفطري لنمو اللغة هي:

- أ- أن بداية انتظام اللغة تحدث ما بين سنتين وثلاث سنوات.
- ب- أن اللغة تنزع قبيل أن يستخدمها الأطفال بشكل مباشر.
- ت- أن التلغظات المبكرة مثل المناغات والسجع لا تمثل ممارسة أو متطلبات تعلم لاكتساب اللغة فيما بعد.

كما يعتقد "تشومسكي" أن نمو اللغة هو حالة مبدئية من النضج وأن العامل البيئي الوحيد الضروري للطفل لكي يتعلم اللغة هو أن يتعرض لبعض اللغة وبعبارة أخرى فإن المعرفة بقواعد اللغة -أي قواعد كيفية تجميع الكلمات في جمل وعبارات ذات معنى- أي التركيب syntaxe هي عملية بيولوجية الأساس^{9 2}.

وبناء على ما يذهب إليه "تشومسكي" فإن كل كائن حي يولد مزودا بقدرة أولية نوعية لاكتساب اللغة، وهي التي يطلق عليها "تشومسكي" آلة اكتساب اللغة، فكل طفل يولد ببناء لغوي عام شائع يرشد محاولات و مجهودات الطفل ليفهم القواعد الأساسية للغة فألة اكتساب اللغة بالمشح تسمح للطفل الصغير أن يستنتج نظام القواعد الأساسية للأطفال يكتشفون التناسق والانتظام المجرد في الكلام الذي يسمعون، ويحللون هذه الأنماط اللغوية، ويستخدمون نتائج التحليل في لغتهم.

إن وسيلة اكتساب اللغة تضع في الاعتبار حقيقة أن كل الأطفال يسرون خلال نفس المراحل في اكتساب اللغة بالرغم من الاختلافات الكبيرة في حصيلتهم أو لغتهم الفطرية، كذلك تضع في الاعتبار أن الأطفال يقعون في الأخطاء عند قيامهم بعملية الجمع (أي جعل المفرد جمع) مثل قولهم "أغنية" فيجمعونها مثلا "أغنانا" بدلا من أغاني...

ويخطئون كذلك عند التحويل إلى زمن الماضي أو التحويل إلى صيغة النفي مثل "أنا نمت لا ويقصدون بها لم أتم أو لن أنام"... وكلها لا يمكن أن تكون قد سمعت أو قلدت.

كما يرى تشومسكي أن الكلام الذي يسمعه الطفل يدخل إلى وسيلة اكتساب اللغة، وبواسطة العملية التي تحدث هناك، تخلق الأفكار الخاصة بقواعد اللغة لاشعوريا، فالقواعد الفطرية التي تشكل وسيلة اكتساب اللغة والقواعد المكتسبة للغة معينة تكون وتشكل النحو لهذه اللغة.^{0 3}

ومن الجدير بالشرح والتوضيح أن هناك مناطق خاصة باللغة في المخ والمنطقة الأساسية يشار إليها باسم منطقة بروكا "Broca" نسبة إلى العالم بيبرول بروكا حيث قام ببحث شامل على هذه المنطقة من المخ، واكتشف أنه عندما تحدث إصابة في هذا الجزء تنشأ عن ذلك "الأفازيا" أي فقدان القدرة على النطق ونجد أن الأطفال والراشدين المصابين بالأفازيا غير قادرين على تسمية الموضوعات والأشياء أو غير قادرين على إنتاج الكلمات على الإطلاق، وهناك منطقة أخرى في المخ متضمنة في الكلام هي منطقة وزنك وإصابة هذه المنطقة في المخ تحدث عدم القدرة على تنفيذ الجمل السمعية أو إتباع التعليمات البسيطة، مثل ضع هذا الكتاب فوق المكتب.

ثم إن جانباً من تعلم الطفل للغة وقدرته على ذلك هو الفهم الفطري للبناء الأساسي للغة، وهو ما يسميه تشو مسكي البناء العميق، ويمثل البناء العميق المعنى أو الفكرة التي تكمن وراء الكلمات في الجملة، أما الجانب أو المستوى الآخر للفهم والذي يأخذ فترة ليتم تعلمه هو البناء السطحي والذي يمثل الجملة التي نراها تسير من كلمة لأخرى خلال الصفحة.^{3 1}

ويمكن توضيح الاختلافات بين هذين المستويين من الفهم من خلال الجمل الآتية "أبنت حركت الكرة، الولد قذف الكرة".

"الكرة حركت بواسطة البنت"، "الكرة قذفت بواسطة الولد".

هاتين الجملتين لهما بناء سطحي مختلف، ولكن معناهما واحد، فالجملتين تتحدثان عن طفل قذف الكرة، ولذلك فالبناء العميق هو نفسه البناء السطحي.

مثال آخر:

"لقد كان نباح الكلب مرعباً"

هذه الجملة لها بناء سطحي واحد فقط، ولكن لها معنيان:

(1) أن الكلاب كانت تنبح بشكل سيء.

(2) أن الكلاب كانت تنبح.

في هذه الحالة هناك بناء عميقان وبناء سطحي واحد، فالبناء العميق قد ترجم إلى بناء سطحي بواسطة تطبيق مجموعة من القواعد، وهذه القواعد تحويلية، وتسمى نظرية تشومسكي "نظرية النحو التحويلي".

إن أهمية القواعد التحويلية تكمن في قدرتها الذاتية على تفريع الجمل من خلال العلاقة التي تتبدى في ضوء ما تقدمه هذه القواعد من إجراءات تفسيرية من خلال بيان العمليات التحويلية المسموح بها من القواعد وتحديد عددها وترتيبها وتعداد القيود المتعلقة بتطبيقها.^{3 2}

وتنقسم القواعد التحويلية إلى قسمين: قواعد تحويلية وجوبية وقواعد تحويلية جوازية (اختيارية) ويعرف هذا في التراث النحوي العربي بالوجوب والجواز، وجوب أو جواز تقديم عنصر وحذف عنصر.^{3 3}

وعموما فإن النظرية الفطرية أو البيولوجية ترى أن هناك تفاعلا بين الاستعداد الفطري السابق على اللغة وبين البيئة، وهذه النظرية تفترض أن اكتساب اللغة سلسلة من القواعد التي تسمح للأطفال أن ينتجوا الجمل.

وهكذا وطبقا لمنظور "تشو مسكي" فإن اللغة المنطوقة في بيئة الطفل يتم ترشيحها وتصفيها من خلال وسيلة اكتساب اللغة، حيث يتم إدراك واختزال النظام النحوي إلى قواعد ثم تقوم وسيلة اكتساب اللغة باستخدام هذه القواعد لإيجاد وخلق تجمعات جديدة من الكلمات، تلك التجمعات قد لا يكون الطفل قد سمع الآخرين ينطقون بها.^{3 4}

ولعل هذه القدرة قد تفسر لنا العدد الضخم من التلفظات الأصلية التي يصدرها الطفل، وتشرح أكثر من ذلك كيف يسلك الطفل ليكتسب اللغة من خلال التغذية المرتجعة لتلفظاتهم الصحيحة.^{3 5} لقد ترك تشو مسكي وأتباعه العديد من الأسئلة المثارة دون محاولة التصدي للإجابة عليها حول كيفية تعلم اللغة، فالفكرة الأخيرة والسابق شرحها بأن الأطفال يجرّدون نظام نحوي توليدي تساعدنا على فهم النمو السريع للتركيب، إلا أنها لا تولي اهتماما كبيرا لنمو "السيمانتيك" أي تطور معاني المفاهيم وينظر كثير من العلماء إلى ذلك باعتباره نقصا أساسيا في النظرية.

كذلك من الصعب أن نعرف شيئا من وسيلة اكتساب اللغة التي يدعيها "تشو مسكي" فهم لم يبرهنوا على أن المخ يحتوي بالفعل على هذه الآلة اللغوية الخاصة، وذلك يمثل نقصا عاما في الدعم التجريبي لهذه النظرية، وبالتالي فإن وسيلة اكتساب اللغة هي بناء فرض مفيد، ولكن خصائص هذه الوسيلة وكيفية عملها بالضبط تظل غير واضحة.

هوامش البحث:

1. ف.م. لويس، اللغة والمجتمع، ترجمة تمام حسان، دار إحياء الكتب العربية، سنة 1959، ص295.
2. يسبرسن، اللغة بين الفرد والمجتمع، ترجمة عبد الرحمن أيوب. القاهرة 1954 ص55
3. ابن جني، الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية (1956) ج1، ص33.
4. انظر: cours de linguistique général éditions talantikit béjaia 2002 page 13 et 14 Ferdinand De Saussure
5. د. عبد الصابور شاهين، فصول في علم اللغة العام، مكتبة دار العلوي، ط3، 1978، ص140.
6. انظر: د/ عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1979، ص29/26.
7. انظر: عبده الراجحي، المرجع السابق، ص29-30.
8. د. عبد الصابور شاهين، فصول في علم اللغة العام، ص197.
9. انظر: يسبر سن ، Jespersen، اللغة بين الفرد والمجتمع، ترجمة د/ عبد الرحمن أيوب، ص24 وما بعدها.
10. انظر: نفس المرجع ص24 وما بعدها.
11. نظر: عبد الرحمن أيوب، اللغة والتطور، معهد الدراسات العربية 1969، ص92.
12. عاطف مذكور، علم اللغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987، ص33.

13. ميشال زكريا، مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغات، ص145.
14. المرجع السابق، ص145.
15. المرجع نفسه، ص73.
16. مارك ريشل، اكتساب اللغة، ترجمة كمال بكداش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص78.
17. انظر: عبد الرحمن أيوب، اللغة والتطور، معهد الدراسات العربية، 1969، ص92.
18. نايف خرما، علي حجاج، اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها، عالم المعرفة، / الكويت، العدد 162، 1988، ص33.
19. سويف مصطفى: الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي، دراسة ارتقائية تحليلية، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1970، ص136.
20. إسماعيل محمد عماد الدين، الأطفال مرآة المجتمع، النمو النفسي الاجتماعي للطفل في سنوات تكوينه الأولى، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد 99، 1986، ص91-92.
21. تشايلد دنيس، علم النفس والمعلم، ترجمة عبد الحليم محمود السيد وزين العابدين درويش وحسين الدريني، القاهرة، مؤسسة الأهرام، 1983، ص172.
22. نوال محمد عطية، علم النفس اللغوي، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط3، 1995، ص163.
23. نفسه، ص205.
24. انظر: جون سيرل، مجلة الفكر العربي، تشومسكي والثورة اللغوية (مقال) مارس 1979.
25. ينظر: ميشال زكريا، مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغات، ص144 وما بعدها.
26. مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، الكويت، العدد 193: 1998.
27. جون سيول، تشومسكي والشؤون اللغوية، مجلة الفكر العربي، عدد8، 1979، ص124.
28. مصطفى ناصف، المرجع السابق، ص310-311.
29. المرجع السابق، ص312.
30. انظر: ستفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، القاهرة، 1988، ص63.
31. المرجع السابق، ص65.
32. انظر: ستفن أولمان، المرجع السابق، ص64.
33. د. أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص124.
34. د/ مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، العدد 193، 1995.
35. / أنس محمد أحمد قاسم، اللغة والتواصل لدى الطفل، مركز الإسكندرية للكتاب، 2005، ص64.
